بلاغة الجمهور والنكتة السياسية
نكات ثورة يناير 2011 نموذجا

Public rhetoric and political humor
Jokes of the January 2011 revolution as a model

د.مصطفى عطية جمعة
أستاذ م. الأدب العربي والنقد
محاضر أكاديمي في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي - الكويت
mostafa_ateia123@yahoo.com

تاريخ الإرسال:2021/07/06	تاريخ القبول: 2021/07/28	تاريخ النشر: 2021/08/01

Abstract:

The purpose of this study is to look at the joke in general, and the political joke in particular, as expressing the eloquence of the public, its attitudes and visions towards the political life in its country. The researcher followed the methodology of discourse analysis, in relation to the eloquence of the audience, and the applied study dealt with the political joke in Egypt before, during and after the January revolution, in order to reach the aesthetics of these jokes and the connotations emanating in them.

Keywords: public rhetoric, discourse analysis, political joke, jokes of the January 2011 revolution, the aesthetics of political humor.

ملخص البحث

المستهدف في هذه الدراسة النظر في النكتة عامة، والنكتة السياسية بشكل خاص، بوصفها معبرة عن بلاغة الجمهور، ومواقفه ورؤاه نحو الحياة السياسية في بلاده. وقد اتبع الباحث منهجية تحليل الخطاب، في علاقتها ببلاغة الجمهور، وجاءت الدراسة التطبيقية متناولة النكتة السياسية في مصر قبل ثورة يناير، وأثناءها، وبعدها، وصولا إلى جماليات هذه النكات والدلالات المنبثة فيها.

الكلمات المفتاحية: بلاغة الجمهور، تحليل الخطاب، النكتة السياسية، نكات ثورة يناير 2011، جماليات النكتة السياسية.

مقدمة

تشكّل النكتة السياسة مرآة عاكسة لتوجهات الشعب ورؤاه في القضايا المستجدة، ذات العلاقة بالسلطات الحاكمة، فلا يمكن قراءة النكتة بوصفها طرفة ضاحكة، وسخرية فاقعة فقط، وإنما لابد من النظر لامتداداتها وتشابكاتها الفكرية والثقافية، ودراستها بوصفها خطابا شعبيا أي صادرا عن شرائح شعبية بسيطة، تستخدم التعليقات الشفاهية والنكات وما شابه للتعبير عن وجهة نظرها، وتمتاز النكات الشعبية بأنها جماعية التأليف، سريعة الانتشار، تتناقلها الألسنة وتضيف عليها، أو تنقص منها، أو تحوّر وتبدّل فيها، وكم من النكات التي استحضرتها الذاكرة الشعبية، وأعادت إنتاجها في سياقات جديدة. ومن هنا، فإن دراسة النكتة السياسية تكون ميدانا خصبا لدراسات تحليل الخطاب.

أما موضوع بحثنا، فهو يختص بالنكتة السياسة خلال ثورة 25 يناير 2011م في مصر، والتي تشكل محطة مهمة في مسيرة الوعي العربي المعاصر، مثلما تتقاطع مع الثورات العربية الأخرى، بغض النظر عن المآلات التي وصلت إليها هذا الثورات، فلاشك أن النكتة السياسة حضرت بقوة، وعبرت عن أحداث الثورة.

في ضوء ما تقدم، تأتي محاور هذا البحث، ساعية في البدء إلى التأصيل النظري للنكتة بوصفها أحد ميادين البحث لمناهج تحليل الخطاب، ومن ثم التطرق إلى دور النكتة في وعي الشعوب عامة، والشعب المصري خاصة، ومن ثم التعرض إلى نكات ثورة يناير: ما قبل الثورة، وأثنائها، وبعدها.

وقد جاء نهجنا تحليل النكتة معتمدا على استراتيجية تحليل الخطاب، وتقاطعاتها الثقافية والشعبية والفكرية والسياسية والاجتماعية، بجانب رصد بنياتها الجمالية.

هذا، ولا يزعم الباحث هنا أنه اجتهد في جمع النكات التي قيلت خلال الثورة، فهذا ليس هدفا للبحث ولا تتوافر مساحة له، وإنما ميدان لبحوث ودراسات أخرى تعنى بالجمع والتوثيق، في ضوء عدم وجود كتاب جامع حول نكت الثورة المصرية، فجلّ الكتب الصادرة عن ثورة يناير اهتمت برصد وتأريخ أحداثها السياسية، لذا، ظلت آلاف النكات التي قيلت خلال الثورة متناثرة في المواقع الإلكترونية والمنتديات والصحف، تتشابه وتتمايز وتتكرر، تنتظر من يغربلها، ليحتويها ضمن توثيق جامع شامل.

آمل من الله سبحانه، أن تكون هذه الدراسة جزءا من كل، يساهم بالإضافة على قدر ما تيسر للباحث من مادة علمية ورؤية فكرية.

بلاغة الجماهير: أسئلة النص والخلفيات:

دوما هناك سؤال مثار قوامه: لماذا الحرص على دراسة أشكال الخطابات الشعبية المختلفة؟ وتتمثل الإجابة في أن دراسة مثل هذه الخطابات ونصوصها لا تعني الانصراف عن دراسة خطابات وأدب النخبة على اختلاف أشكاله وأنواعه وبلاغاته، وإنما يعني مضي الدراسة النقدية البلاغية في آفاق واسعة، تتجاوز أدبيات النخبة، إلى كل ما تنتجه قرائح العقول والألسنة في كافة شرائح المجتمع، بهدف التعرف على آدابهم الشفاهية المعبرة عن ذائقتهم الجمالية ونفسياتهم وأفكارهم، كذلك الوقوف على رؤى أبناء المجتمع وتفاعلهم مع القضايا العامة، وما يدور في رقعة الأوطان من أمور سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية. لتكون المحصلة في النهاية الوقوف على مظاهر التعبير الفني وأشكاله، والنظر إلى أدب الجماهير بوصفه مرايا نتعرف من خلالها على النفسية الجمعية، بكل أبعادها الثقافية والفكرية. وصرنا الآن في حاجة إلى التبحر في مثل هذه الدراسات، لأنها تمثل مؤشرات – بجانب دراسات أخرى – على معرفة نفسيات الشعوب.

فمن أبرز الإشكاليات التي أُخِذَت على تحليل الخطاب الإبداعي أنه توجه بشكل مباشر إلى المقاربة الوصفية لما يحويه الخطاب الإبداعي على مستوى الجماليات والطروحات فيما يسمى نحو (أجرومية) الخطاب، وأعطى القليل من الاهتمام إلى ما يمكن أن نطلق عليه (أجرومية) المجتمع "، فكانت المحصلة: الاهتمام بالبعد التوصيفي لمحتويات الخطاب، وتواري التساؤلات الخاصة بكيفيات إنتاج الخطاب وتوزيعه واستهلاكه وسياقاته، وما يمكن أن يفعله في لحظة تاريخية معينة من تأثير، وأغرق نقد الخطاب في تحليل المفاهيم، فصار أقرب للنقد الإيديولوجي على حساب التحليل الوصفي / الكيفي[1] ، مما أدى في النهاية إلى فجوة / فجوات بين النقد ودراسة خطابات بعينها، تنتجها النخبة والأدباء والكتّاب المرتبطين بهم أو غير المرتبطين، مع إهمال في المقابل للخطابات المختلفة التي تنتجها العامة أو الأشخاص غير النخبويين والبسطاء ومن هم على شاكلتهم. وقد تم تجسير هذه الفجوة من خلال ما يعرف بالتحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis عبر مقاربة جامعة ما بين التحليل الوصفي التفصيلي للتجليات اللغوية والنصية للخطاب، وتحليل الحجج وأساليب البرهنة ونقد علاقات السلطة التي تعبر عنها وتنتجها أو تقاومها وتؤسس بديلا لها[2] .

فيمكن الجزم بأن الدراسات البلاغية المعاصرة، وعبر تبنيها لاستراتيجيات عديدة في تحليل النصوص والخطابات ؛ قد توسعت ونظرت إلى أشكال البلاغات التي ينتجها الجمهور، والتي تشمل مختلف الخطابات العامة صوتية ومرئية ومكتوبة، بجانب الشفاهيات اليومية الممثلة في النكات والطرائف والتعليقات، وما يتم نشره في وسائل التواصل الاجتماعي Social Media،

لنجد أنفسنا أمام كم هائل من الخطابات، التي يتعين الوقوف أمامها بالتحليل والتفسير ورصد أبرز معالمها وجمالياتها، وهذا أحد نواتج انفتاح التحليل النقدي للخطاب، الذي استهدف شرائح واسعة من المجتمع، بهدف الوقوف على تفاعلاتها المختلفة مع القضايا المثارة، ولمعرفة اتجاهات تفكيرها ومشاعرها، وعلى صعيد الدراسات البلاغية، فإن تحليل بلاغة الجماهير هو أحد أوجه اكتشاف جماليات جديدة، تتجاوز الجماليات في النصوص الأدبية التقليدية ؛ حيث تمثل مختلف أنماط التعبيرات الرمزية (القولية والمرسومة والحركية) سبلا مهمة في فهم طبيعة المخزون الثقافي الجمعي، بل فهم الجماعة والمجتمع نفسه، فهي أشبه بالمرايا العاكسة لنفسية الشعوب، لما تحمله من قيم ومعتقدات وتوجهات وإشارات. كما تكشف من جهة أخرى - بطرق مباشرة أو غير مباشرة - عن جوانب خفية للمجتمع، سواء كانت في شكل أفكار أو تطلعات أو رغبات مكبوتة أو مواقف متبناة، لأنها تمتلك قدرا كبيرا من التلقائية في صياغتها وتكاد تكون أقرب إلى التعبير الفطري عن توجهات الناس، نظرا لارتباطها بالواقع الاجتماعي والمعيش اليومي. ولنا أن نتخيل كم الأنماط التعبيرية المنتجة بشكل يومي في أي مجتمع، لنعرف حجم التحدي الذي يواجه الباحثين لرصد اتجاهات تلك الأنماط، ومتابعتها.

أيضا، فإن تلك منهجية تحليل الخطاب للفنون القولية الجماهيرية لابد أن تكون مختلفة في نظرتها وأدواتها وإجراءاتها فهناك اختلاف كبير بين ما تنتجه اللغة المحكية / العامية، وما نجده في اللغة المكتوبة الرسمية. فلدى المتكلم تشكيلة كاملة من المؤثرات مصدرها نبرة الصوت وكذلك ملامح الوجه وأشكال الوقفة والحركات، فيستطيع المتكلم دائما تجاوز آثار الكلمات، آخذا في حسبانه الموقف والسياق وطبيعة المستمعين له خاصة أنه يستطيع أن يرى المتكلم وينوّع من مؤثراته الصوتية والحركية كي يحقق الغاية المرادة، مدركا كيفية وقوع الأداء في ذات المتلقي، وهل ما يقصده ملائم للموقف والعمر والنفسية والعقل أم لا[3].

وهناك فنون قولية وحركية وبصرية تحتاج إلى أشخاص ذوي ملكات خاصة في إنتاجها وتسويقها، فإلقاء النكات والطرائف مثلا يحتاج مهارة وشخصية ضاحكة وقدرة على التمثيل والتأثير، لا تتوافر للكثيرين، وهذا يصدق أيضا على الأغاني الشعبية، ورواة السير الشعبية، والأشكال التمثيلية الشعبية وغيرها ؛ لنصل في النهاية إلى أن هناك إبداعات جماهيرية تُؤدَّى بشكل عفوي ارتجالي من جانب منشئيها، وهناك بلاشك بارعون فيها، وهناك إبداعات جماهيرية أيضا قد يكون فيها ارتجال أو إعداد مسبق، ولكنها في النهاية تحتاج إلى ميزات خاصة فيمن يقدمها. وفي جميع الأحوال، فإن دارس الخطاب الجماهيري يضع كل ما سبق في حسبانه كي يخرج بتصور مكتمل عن النص ومنشئه وسياقاته ورسائله.

أيضا، فإن بلاغة الجماهير المنطوقة لها سمات خاصة، تفوق الرسمي والمدون، وتتمثل أبرز هذه السمات في أنها نصوص مجهولة المؤلف في أحايين كثيرة، أو جماعية التأليف في أحايين أخرى، وفي جميع الأحوال، فإنها نصوص غير ثابتة، يتم تغييرها بالزيادة والحذف، حسب السياقات الملقاة فيها، وبعض النصوص يتم إعادة إنتاجها وتكون مأخوذة عن شفاهيات قديمة، وقد رأينا أمثالا شعبية وأغاني ونكات وطرائف قيلت في حقب تاريخية سابقة، وتم استحضارها في مواقف جديدة، بنصها أو بتغييرات فيها.

النكتة: الماهية والأثر:

بالنظر إلى " النكتة " في بعض دلالتها اللغوية، نجد أنها: العلامة الخفية، والمسألة العلمية الدقيقة التي يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر، وهي أيضا الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس، وتعني أيضا من أتى بطرف وطرائف[4]. وهي بذلك تلتقي لغويا مع طبيعة الشكل التعبيري المنتج، في كونها قصيرة، مؤثرة في النفس، بها الإيحاء الخفي، التي تدعو لإعمال الفكر.

أما مفهوم " النكتة "، فهي مروية شفاهية، مكونة من سلسلة كلمات منتظمة داخل نسق خاص بغرض التأثير على المتلقي وجعله يضحك، على الأقل هكذا تبدو. والنكتة قد تكون قصة قصيرة جدا أو حادثة واقعية أو وهمية، لا تربط بين أسبابها ونتائجها علاقة منطقية أو متوقعة، مما يترتب على ذلك مفارقة تدعو سامعها إلى الاندهاش والضحك في آن واحد بسبب عنصري المفاجأة والمفارقة، تتمثل المفاجأة في النتيجة غير المنتظرة من قبل السامع / المتلقي للنتيجة أولا، وتبدو المفارقة في اشتمالها على غرابة العلاقة بين سبب الحادثة ونتيجتها ثانيا، وكلا العنصرين (المفاجأة والمفارقة) يسبب حالة من الدهشة المقترنة بالمتعة التي يعبر عنها المتلقي بالضحك، وهو تأثير إيجابي. وبما أننا نستمع إلى النكتة لنضحك أو نرويها لإضحاك الآخرين، فإننا نفيدهم بانشراح صدورهم وانفراج همومهم ولو مؤقتا. فالنكتة تعبير لا يمكن التحكم في مصدر صناعته ولا ضبط إيقاعه ولا حتى إيقاف رواجه[5]، فهي تلعب على الوتر الأكثر حبا لدى النفس البشرية وهو الابتسامة والضحك، والنفوس تتوق لمثل هذا اللون في أشد حالات حزنها تفريجا للهم، وفي حالات سعادتها طلبا للمزيد. فلا غرو أن تكون النكتة من الأشكال الأكثر انتشارا وإبداعا، لا يختص بها مجتمع دون آخر، ولكن هناك مجتمعات تبرع في إنتاجها وتعدّها خبزا يوميا لها، وهناك مجتمعات تعدها أقرب للنادرة، وتلك من الخصائص المميزة للشعوب، فكل شعب له شخصيته الجمعية، والفنون المميزة له.

فمن الملاحظ أن النكتة وسيلة تعبير رئيسية، بل هي لسان حال عندما يعاني الفرد / الشعب من الكبت والقهر السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وهنا تتخذ النكتة شكل محاولة قهر

القهر، أو بالأدق مواجهة القهر بالضحك، وهذا ما أكده علم النفس، حيث يرى " سيجموند فرويد 1856-1939 " أن الفكاهة واحدة من أرقى الإنجازات النفسية للإنسان، خاصة النكتة، لأنها تصدر في تصوره من آلية نفسية دفاعية في مواجهة العالم الخارجي المهدد للذات، وتعتمد هذه الآلية على تحويل حالة الضيق أو عدم الشعور بالمتعة إلى حالة من الشعور الخاص بالمتعة أو اللذة. ويميز " فرويد " بين ثلاث خبرات مبهجة للإنسان، وهي النكتة والفكاهة والأمر المضحك، ويرى أن النكتة أقرب إلى الدعابة اللطيفة أو الذكية، بنفس المعنى المقصود في العربية، ولكن ما يجمع هذه الخبرات هو وجود طاقة نفسية مقتصدة أو جرى توفيرها من الأغراض العادية أو المألوفة، والتي عادة ما تبذل هذه الطاقة من أجل تحقيقها أو إنجازها، وتُبَدد هذه الطاقة الفائضة على هيئة ضحك. ويربط فرويد استقبال النكتة بمبدأ اللذة الثابت عنده، من خلال المتعة الخاصة بالمضحك Comic الناشئة عن توفير الجهد في التفكير، ومن ثم إنفاقها في الابتسامة. وتستفيد النكات منها، بعض التكنيكات المعرفية - اللاشعورية خاصة – المتعلقة بتكوين النكتة، مثل الإحلال والإبدال، التكثيف، الاستخدام المتعدد للمادة نفسها، نظام ترتيب مختلف لمكوناتها، استخدام الكلمات نفسها التي تكون زاخرة بالمعنى وأحيانا فارغة منه، بجانب المعاني المجازية والحرفية واللعب بالكلمات وفي المجمل، فإن النكتة تسمح للفرد بالتعبير الموجز عن دوافعه واندفاعاته اللاشعورية التي غالبا ما تكون ذات طبيعة عدوانية أو ذات طبيعة جنسية - على حد قول فرويد – والتي عادة ما تكبت في الحياة اليومية العادية. وفي العموم، فإن الفكاهة بمنزلة النشاط الخاص للأنا الأعلى لتخفيف حالة القلق بها[6].

لقد قرأ فرويد النكتة ضمن رؤيته الخاصة في علم النفس، الذي يرجع الأمور إلى مبادئ عديدة تهم النفس الإنسانية وهي: اللذة، والعدوانية، واللذة الجنسية، وأنها رغبة في تخفيف القلق والتوتر عن الإنسان، وربما يصدق هذا بعض الشيء في مواقف وأشخاص بعينهم، ولكن من الخطأ التعميم مع فن جماهيري يُقدَّم في مواقف الحزن والبهجة، السلام والحرب، الفقر والغنى، ويحرص على الإنصات لها مختلف شرائح الشعب وطبقاته. ومن هنا، فإن دراسة النكتة لابد أن تكون ضمن سياقاتها المنتَجَة فيه، والمواقف التي تقال فيها، فلا نكتفي بالنص وحده، وإنما ننظر في خلفياته وهوامشه وحوافه وقائليه ومستقبليه، فالنكتة أشبه بالنبتة، يهم المزارع حصد ثمارها، ولكن الباحث لا يعتني بالثمار بقدر اعتنائه بالبيئة التي أنشأتها، والأجواء المحيطة بها، وساعتها سيكون أقدر على فهمها. فدراسة فن النكتة لا تتم في المطلق، وإنما تقرأ ضمن الزمان والمكان والإنسان.

هذا، وتشترك النكتة مع أشكال الخطاب الجماهيري التي ينتجها أبناء الشعب، وتتلاقى مع هذه الأشكال في كون المشترك بينها هو: اعتمادها على البنية اللغوية في الأساس، وأنها خطاب بلاغي آني براغماتي، يتخطى الإخبار إلى الإقناع والتأثير (وأيضا السخرية والتعليق)، وقد تستعين بأنظمة غير لغوية،سيميوطيقية وإشارية ورمزية وصور وموسيقى، وهي تعبر عن وجه لغوي مختلف، لأنها غالبا تصاغ باللهجة العامية، مبتعدة عن الفصحى الكلاسيكية المستخدمة في الخطابات الرسمية والأدبية والتنظيرية والتي تكون عادة موضعا لسائر الدراسات المعنية بالتحليل البلاغي، في مجتمعات عربية تعاني أزمات متعددة في الحريات، ويحظر فيه الكلام في موضوعات كثيرة على مستوى الخطابات الإعلامية، ولكن يجد الناس متسعا في النكتة وسائر أشكال التعبير غير الرسمي، التي لا يتم تدريسها أو حتى تبنيها، وإنما تُترَك للتفاعل والانتشار بين الناس، خاصة أنها لا تخضع للمراجعة والتنقيح، وإنما تُتَداول كما هي، وقد يزاد عليها[7] .

النكتة في ثورة يناير:

يمكن أن نطلق على ثورة يناير 2011م " الثورة الضاحكة "[8]، بالنظر إلى الكثير من النكات والطرائف التي رافقتها، وبثها ناشطون إبان أيام الثورة، وتداولتها الشعب عبر مواقع التواصل الاجتماعي، والتي كانت بمثابة المفجر الأساسي للثورة والوسيلة الأهم في نقل الواقع على الأرض، بجانب القنوات الفضائية التي أيدت الثورة مبكرا. كانت ثورة يناير في بدايتها ثورة بيضاء، قبل أن تغطيها الدماء في معركة الجمل الشهيرة (2 فبراير 2011م)، وما تلا ذلك من أحداث مؤسفة تمثلت في التآمر المستمر على الثوار، وإطلاق النيران عليهم، بجانب الكم الهائل من الشائعات وعبارات التخوين. ولكن ظلت الثورة المصرية ثورة سلمية في أساسها، وإن حاولوا جرّها إلى العنف، على نحو ما هو معروف من أحداث واكبتها.

وبغض النظر عن مآلات أحداث ثورة يناير، فلاشك أن هذه الثورة ومع غيرها من الثورات العربية فجّرت أحداثا دراماتيكية في الشرق الأوسط، وساهمت في اهتزاز كثير من القناعات، ونهاية أنظمة حاكمة، وتفكك دول بأكملها، لتعلن في النهاية أن الدول الوطنية التي تأسست بعد جلاء المحتل الأجنبي ما هي إلا كيانات هشة، بنظم سلطوية مستبدة، وكانت الكارثة أنها بدأت ثورية اشتراكية قومية وانتهت إلى قطرية فئوية / قبلية / عائلية، محاربة لكل راديكالي وطني.

لقد كان حدث الثورة ساخرا في حد ذاته، فقد جاء يوم 25 يناير، وهو الاحتفال السنوي بعيد الشرطة في مصر، فتم اختيار التظاهر في هذا اليوم، لأسباب عديدة، منها نجاح الثورة التونسية التي جاءت صدى لمقتل الشاب " محمد بوعزيزي " منتحرا، وتلاقت مع حالة السخط

العامة ضد أداء جهاز الشرطة في مصر وقسوته في تعذيب المعتقلين ومطاردة السياسيين والمعارضين مستغلا قانون الطوارئ المستمر تطبيقه طيلة عقود، تواكب ذلك مع انتخابات مجلس الشعب في نهاية العام 2010 وما رافقها من تزوير فج، بجانب الشائعات القوية عن توريث السلطة في مصر لنجل " حسني مبارك، وما شهده الحكم من ظاهرة تزاوج السلطة مع أصحاب الثروة، كما تبدت في حكومة أحمد نظيف، ودعم " جمال مبارك " لها، ودخول عدد من رجال الأعمال فيها، وتفصيل قوانين تعزز سيطرتهم على الاقتصاد الوطني.

لقد جاءت النكتة سابقة ومواكبة ثم تالية لثورة يناير، فهي أقرب إلى التأريخ الساخر لموجبات الثورة، وما جرى فيها، ثم توابع الثورة ونتائجها. وبالتالي عبرت عن آلام الشعب، ورؤاه لما يحدث في بلده، وفي نفس الوقت نهت على مواطن الخلل، ومظاهر المعاناة، وكيف نظر الشعب لحكامه وسخر منهم.

وهذا يتسق بشكل كبير مع فلسفة النكتة المتمثلة في أنها: نقد للموضوع / الحدث، وتعريته من أجل إصلاح الواقع وتغييره إلى الأحسن، فهي المحطة الأساسية و الوجه الحقيقي لرصد الخطاب الفكاهي بغية تنبيه الفرد وبعث الحياة فيه من جديد. فالنكتة كشكل تعبيري هي موقف ورأي اتجاه موضوع ما، ومن ثم نقل هذا الموقف وهذا الرأي إلى الآخرين وإحساسهم به من أجل كشفه ومعرفة كنهه، وما يحتويه من عيوب ومفارقات اجتماعية مختلفة في ثوب خفيف ترفيهي فكاهي[9].

وهنا يكون دور النكتة توعويا تنويريا تحريضيا، وفي نفس الوقت يقدّم الوجه الآخر للتاريخ من منظور شعبي ساخر، فإذا كُتِب التاريخ من قبل السلطة أو بشكل رسمي، فيجب أن ينظر المؤرخ إلى ردة فعل الشعب في القاع على ما يجري في القمة، وساعتها ستكون الرؤية أوضح وأشمل لمن ابتغى الحقيقة. ويتبقى السؤال: هل كان للنكتة بالفعل دورا تغييريا بالإضافة إلى أدوارها الأخرى؟ ولاشك أن الإجابة ستكون بالإيجاب بالنظر إلى أن النكتة في الثورة المصرية كانت تحريضية وتغييرية في آن، وتجلى دورها قبل أحداث الثورة وبعدها، بوصفها مسببة ومعبرة عن الجماهير وآلامها وأيضا حركتها، وعن رؤيتها للسلطة.

نكات ما قبل الثورة:

يمكن القول إن المشهد قبل الثورة كان شديد العبث إلى حد الإضحاك، وما زال الناس يرددون نكات عديدة عن تلك الحالة، توضح بجلاء رأي الشعب في السلطة، وكيف أن هذه النكات كانت ممهدة لأحداث ثورة يناير، وتكون دليلا على نظرة الشعب إلى ما يجري على القمة، وعدم انخداعه بكلام الساسة المؤيدين للسلطة والمنظرين والمبررين لممارساتها، وبالتالي

يعيد صياغة ما يراه من أحداث سلطوية في قصص وطرائف ونكات، تمثل في النهاية مقياسا لدرجة السخط الشعبي.

من هذه النكات[10] ما ردده المصريون عن ثراء نجل مبارك الأكبر" علاء "، فهذا صاحب مقهى يسأله أحد الزبائن عن الصور المعلقة فوق مكتبه في مقهاه، فيخبره "أنهما صورتان، " الأولى له بصفته صاحب المقهى، والثانية لـ " أبو علاء " شريكي في المقهى ". في إشارة إلى توغل علاء مبارك في كافة المشروعات الناجحة ودخوله بنسبة عالية، مستغلا سلطة والده، فلم يترك أي شيء حتى المقاهي الشعبية البسيطة. وهي نفس النكتة التي تداولها الناس بشكل أو بآخر:

" مرة واحد ركب تاكسي ولقى السواق معلق في العربية صور جمال عبد الناصر وانور السادات وحسني مبارك الراجل، استغرب فسأل السواق: مين اللي انت معلقهم صورهم عندك، قال له: دا جمال عبد الناصر الزعيم المصري الراحل ودا أنور السادات قائد حركة السلام والأمن في البلد، ودا حسني مبارك أبو علاء شريكي في التاكسي ". فشارك علاء مبارك الأغنياء و الفقراء في ممتلكاتهم.

وهذا هو " مبارك على سرير المرض، يعطي وصاياه الأخيرة لأحمد نظيف(آخر رئيس ووزراء في عهده): وصيتك الحكم من بعدي، فأجابه في رقبتي يا ريس.. كله تمام، و السلطة هياخدها ابنك جمال، ثم راح في غيبوبة، أفاق منها بعد قليل وقال لأحمد وصيتك الشعب من بعدي، فأجابه: ما تخافش يا ريس.. الشعب دا بياكل الزلط، ثم راح في غيبوبة، أفاق منها بعد قليل و قال له «أحمد»، أجابه «نعم يا ريس»، قال مبارك «ما تنساش.. تعطي توكيل شركة الزلط لإبني علاء».

والموقف واضح، وفيه إدانة مباشرة لمبارك الأب، وتصديق للإشاعات التي كانت تملأ البلد، بأنه يرغم أصحاب الأعمال على إشراك ابنه معهم، وإلا تعرضوا لنقمة السلطة عليهم، وما أكثر الشائعات المتداولة حول هذا الأمر، فلا عجب أن يتم التحقيق مع علاء مبارك بعد ثورة يناير، وعندما يسأله المحققون عن مصدر ثروته التي لا تحصى من الأراضي الزراعية والعقارات والشركات والأموال المتضخمة في حسابات البنوك، لا يستطيع أن يقدم جوابا عن بدايتها أو كيفية تكوينها[11].

وهذا " حسني مبارك يركب الطائرة مع ابنيه: علاء وجمال، فيخرج مبارك عشرة جنيهات من جيبه، ويقول لعلاء: ايه رايك يا علاء لو أني أرمي العشرة جنيه من الطيارة فتنزل على مواطن يدعو لي. فرد علاء: فكرة جميلة يا بابا، ولو فكينا العشرة إلى خَمْستين من الجنيهات، يدعو لك اتنين بدل من واحد. فابتسم مبارك معجبا بالفكرة، ونظر لجمال، فقال جمال: ولو فكينها يا بابا

إلى جنيهات فكة، يدعو لك عشرة مش اتنين، فضحك مبارك، وقال: فعلا الديمقراطية تأتي باقتراحات جديدة، خلونا نسأل كابتن الطيارة. فنادوا عليه، فحضر الكابتن، وأخبره مبارك بالفكرة، فابتسم الكابتن، وقال: ممنوع علي الحديث إلا إذا أعطيتني الأمان. فقال مبارك: لك الأمان وتحدث. فقال الكابتن: والله يا ريس، لو رميت نفسك من الطيارة؛ الشعب كله هيدعيلك ". النكتة تشير إلى تململ الشعب الشديد من طول حكم حسني مبارك الذي قارب ثلاثين عاما، وفي كل انتخابات رئاسية يزعم أنه يعمل بالديمقراطية، مثلما طبقها في الطائرة، فديمقراطيته تعني مشاورة من حوله هو مما يختارهم من مستشاريه، وفي السنوات الأخيرة كان ولداه مستشارين له بشكل أساسي، وتلك هي ديمقراطية المستبدين كما يفهمونها. وأيضا فإن كابتن الطائرة كان صوت الشعب المعبر، بالرغم من أن مثل هؤلاء يتم اختيارهم بعناية.

وتم العزف على نفس المضمون، وهو تمني الشعب موت الرئيس، الذي امتد به الحكم حتى ملّ الشعب، ولم يعد هناك أمل لديه إلا الوفاة بأية طريقة. فهذه نكتة دالة على هذه الرؤية: " مرة مبارك و سوزان و جمال راكبين عربية وفيها سواق، وجمال قال أنا لما بخطب في مجلس أو في جمعية جيل المستقبل بيصفقلي حوالي 2 مليون. سوزان قالت أنا لما بخطب في مجالس المرأة و المجتمع بيصفقلي 5 مليون. مبارك قال أنا لما بقول بيان أو خطاب بيصفقلي 7 مليون. قام السواق قال: وأنا لو لبست بيكم في الحيطة هيصفقلي 80 مليون".

إن الرد هنا جاء من أحد المرافقين للأسرة دائما، وهو سائق السيارة، في دلالة على انعزال الأسرة عن الشعب، وأن السائق - أو قائد الطيارة – هو الذي ينقل إحساس الشعب، لأفراد عائلة مبارك المنخدعة في تصفيق الشعب لها. ونرصد هنا أن كل فرد في العائلة – تقريبا – له نشاطه المجتمعي / السياسي الذي يطل من خلاله على الشعب، فالسيدة " سوزان " تنشط في مجالس المرأة وخدمة المجتمع، والابن جمال في جمعية المستقبل التي أسسها لاستقطاب الشباب، أما مبارك الأب فهو يخطب أمام الملايين في التلفاز، ولم تتم الإشارة إلى علاء الابن الأكبر في سياق النكتة السابقة لأنه كان حريصا على عدم الظهور الإعلامي مطلقا، فلم يتم تسجيل حوار معه أو نشاط اجتماعي علني، فقد اكتفى بالمال والأعمال.

وهناك نكتة أخرى: " بيقولك واحد لقى الفانوس السحرى، دعكه طلع له العفريت وقاله:شبيك لبيك تطلب إيه؟ قال له الرجل: أنا عايز كوبرى بين القاهرة وأسوان. قال له العرفيت: دى صعبة قوى، نقّي حاجة تانيه. الرجل قال له: خلاص خلى حسنى مبارك يسيب الحكم ؛ أجابه العفريت:أنت عايز الكوبرى رايح جاى ولا رايح بس"

والنكتة شديدة السخرية، وتقف عند مستوى هائل من المفارقة، فما طلبه الرجل من العفريت الخارج من القمقم لا يعقل، بل هو فانتازيا ساخرة، أن يكون هناك جسر بين القاهرة وأسوان، ولكن العفريت يستسهل ذلك، عندما يُطلَب منه إجلاء مبارك من الحكم، وقد التصق به إلى حد غير متصور.

الملاحظ في هذه النكات أنها مواقف قصصية، تستند إلى درامية الموقف، وتعتمد على الإشارة واللمحة، التي يفسرها المتلقي ويسقطها على الواقع. وكما يقال في الأدب الشعبي، فإن " تلك الأحدوثة القصيرة، المنثورة أو المنظومة التي تحكي نادرة أو سلسلة من لنوادر، وتنتهي إلى موقف فكه مرح، وأما موضوعها فيؤخذ من الحياة اليومية، وتندر فيها الخوارق، وحين تظهر هذه العناصر تكون وظيفتها أن تخلق القاعدة التي يقوم عليها الموقف المرح لا أن تخلق الموقف نفسه "[12]، والمقصود بالخوارق هنا المفردات الأسطورية، وهي بالطبع قد تحدث مثلما رأينا في نكتة القمقم والعفريت، وهذا يعني أن صانع النكتة يستخدم مخزونا تراثيا شائعا في الثقافة الشعبية، في سبيل صنع الدعابة المرادة، التي " يقاس نجاحها أو فشلها بالقدر ما تحققه من إشاعة المرح"[13]. مع الأخذ في الحسبان أن المرح هنا ليس ترفيها فقط وإنما معبرا عن رؤية الشعب لمن يحكمونه، وسلوكهم نحوه.

إن نكات المصريين قبل الثورة، تركزت على استدامة مبارك للسلطة، وإعداده لابنه ليخلفه من بعده، أسوة بما حدث في أقطار عربية أخرى (سورية تحديدا)، وبما يتم تجهيزه في أقطار أخرى مثل اليمن (أحمد نجل علي عبد الله صالح)، وليبيا (سيف الإسلام نجل القذافي). فالقضية كانت أوسع، ولا تشمل مصر وحدها، وهذا ما ينبغي قراءة الثورة المصرية فيه، أي نستحضر البعد الإقليمي والعربي من حولنا، فالأحداث والأوضاع متشابهة، لذا جاءت الثورات متقاربة.

نلاحظ أيضا، أن النكات السابقة – وهي مجرد أمثلة – استندت إلى تخييل درامي، عبر موقف قصصي، موجز، يصاغ في مهارة، ويحكى في دقيقة أو أقل، حتى يجذب المتلقي، ويحقق له الإدهاش، ومن ثم الانطلاق في الضحك. كما أن بنيتها العامية غير متوجهة للنخبة، وإنما للشعب في كافة شرائحه، غير المنخدع فيما يقال من دعايات رسمية في مختلف الوسائل الإعلامية (الحكومية والخاصة)، والتي تنفي التوريث، وتؤكد أن بقاء مبارك في السلطة عنوانا للاستقرار، وكانت المصيبة في تأييد عدد من المثقفين والنخبويين لهذا التوجه، وهم المنتفعون من النظام، والذين كانوا نجوم الشاشات والمقالات طيلة حكم مبارك، يسعون إلى إقناع

الشعب بما يريده النظام، فباتوا جزءا منه، ومحسوبين عليه، وعندما قامت الثورة توارى بعضهم خجلا أو تنصّل وبرر مواقفه.

النكتة خلال الثورة:

أبدعت الجماهير في النكتة، وازدهر فن السخرية بشكل لافت بين فئات الشعب، خاصة المتظاهرين منهم، الذين اتخذوا من ميدان التحرير ملاذا واعتصاما لهم، في ضوء موقف الجيش الرائع، الذي قام بحراسة الثوار، ولم يتعرض لهم بأذى طيلة أيام الثورة، وقبل وبعد تنحي مبارك. وقد سجلت عشرات الوثائقية المكتوبة والمرئية ما قام به الثوار من إبداعات غنائية وتشكيلية عكست خفة دم المصريين، وكيف صبروا حتى رحل رأس النظام وحكومته من بعد ذلك.

ويمكن تقسيم نكات الثورة إلى أقسام عديدة، تعتمد على مضمون النكتة ذاتها وأحداث الثورة وأيامها، والتي امتدت إلى ثمانية عشر يوما:

1) **نكات الثورة وما قبل التنحّي**:

ثبت الثوار في الميادين خاصة ميدان التحرير (بدلالته الرمزية)،ولهم مطلب محدد وهو رحيل النظام بأكمله: الرئيس وعائلته وحكومته، وخلال هذه الأيام جاء النكات معبرة عن رؤية الشعب لما يجري، وكيف نظروا إلى سلوك رأس السلطة.

فهذا خبر عاجل: " الرئيس وعبر أثير الإذاعة يهدي الشعب المصري أغنية نانسي عجرم: أخاصمك آه.. أسيبك لا ". في إشارة إلى البرنامج الشهير الذي تبثه إذاعة البرنامج العام في القاهرة وهو " ما يطلبه المستمعون "من أغان[14].

وهذه من النكات التي رددها الشباب الجامعي، ونلاحظ أنها – مع غيرها – تعبر عن السائد في قاموس الشباب من مفردات وأغان وتوجهات. الأغنية حديثة جدا وقتها للمطربة اللبنانية نانسي عجرم، وفي الوقت نفسه فهو يخاطب الشعب، وعينه على الكرسي، الذي ظل جاثما عليه ثلاثين عاما، فلن يتركه مهما حدث.

وقد طالبوا مبارك والثورة في أشدها بأن الشعب يريد التغيير، فكان رده على النحو الآتي: التغيير ده سنة الحياة. قالوا: طيب وسيادتك مش هتتغير؟ قال: أنا فرض مش سنة ". إنه تلاعب بالمصطلح الديني "الفرض والنافلة"، ولكن وفق مفهومه هو، متحديا مفهوم التغيير ذاته، في غمزة إلى المؤسسة الدينية الرسمية التي يضفي علماؤها المقربون إلى السلطة مسوغات ومبررات تقنع الرئيس، وقد يستخدمها في ردوده على التساؤلات. كما أن كلتا اللفظتين: السنة والفرض تكتسيان بدلالتين جديدتين: فالسنة تعني إمكانية التغيير سياسيا، أما الفرض فهو

يعني البقاء إلى نهاية العمر، على غرار اللافتات التي ملأت الميادين العامة في الانتخابات الرئاسية الأخيرة (2005م)، وتعلن تأييدها لترشيح الرئيس وبقائه إلى نهاية الحياة. النكتة موجزة، يتقاطع فيها الديني مع السياسي مع أزمة السلطة.

ومن النكات الطريفة، ما ردده الشباب المصري الذي نشأ جيل كامل في عهد مبارك ووصلوا إلى الثلاثين، وكثيرون لم يعرفوا رئيسا غيره، ووجدوا الإعلام المصري يتغنى بالضربة الجوية في احتفالات أكتوبر كل عام، وينسب لها النصر كله، لأن مبارك كان قائد سلاح الطيران. تقول النكتة: " يا ريت مبارك كان ضربنا إحنا الضربة الجوية، وراح حكم إسرائيل ثلاثين سنة، كان زمانهم دلوقتي يشحتوا ". وهي نكتة شديدة الألم، فبطل النصر جعل مصر في ذيل الأمم، وأينما حلّ سيجعل الشعب يتسول، والخلاصة أن العسكري وإن كان له إنجاز حربي كبير فلاشك سيفشل في الحكم المدني ما دام يفتقد الخبرة والمشروع والرؤية.

وهذا هو مبارك، وخلال الثورة يجلس مع " حبيب العادلي " آخر وزير الداخلية في عهده، ويقول له: " منعت الحشيش يا فالح، أهو الشعب صحصح ". وتلك سخرية من مبارك نفسه على الشعب، وإشارة ضمنية إلى تورط وزارة الداخلية في تسهيل ترويج الحشيش بين المصريين، وكأن وزارة الداخلية تتعمد ذلك، من أجل المزيد من تخدير الشعب. نلاحظ أن شكل النكتة موقف حواري بين مبارك ووزير داخليته، و " العادلي " معروف عنه الفساد المالي[15]، والإمعان في القتل والتعذيب والاعتقال العشوائي، من خلال جهاز أمن الدولة، وسائر إدارات وزارته.

أما عن لافتات الثوار[16] خلال أيام الثورة عن مبارك وزمرته، والتي رفعوها خلال اعتصامهم، فإن " رابطة نجاري مصر رفعوا لافتة مكتوب عليها: إلى الأسطى مبارك: ما نوع الغراء الذي تستخدمه؟ " في تلميح إلى التصاقه بكرسي السلطة وعدم رغبته في التنحّي رغم هياج الناس عليه. وهذا رجل يرفع لافتة مكتوب عليها:

"ارحل المرة (المرأة) عاوزة تولد، والولد مش عاوز يشوفك"، والدلالة رمزية عالية، فهم يريدون جيلا جديدا، لا يكون مبارك رئيسا له، بعدما ظلت أجيال عديدة لا تعرف وجها في السلطة غيره، إن الأم الحامل هي مصر، وآلام المخاض هي الثورة التي تعتمل في أعماق شعبها.

وهذا آخر يرفع لافتة: " ارحل، عاوز أتجوز"، فقد عانى الشعب في عهد مبارك الكثير من تدني الرواتب، والبطالة، وعدم القدرة على الزواج، واحتكار فئات بعينها للمناصب والوظائف الجيدة، وهم أبناء المقربين من السلطة، والعائلات الكبيرة، وأعضاء الحزب الوطني، فيرى أن رحيل رأس سلطة الفساد يعني حصوله على فرصة عمل مناسبة تمكنه من الزواج.

وهذا ثالث متزوج، وقد رفع لافتة مدون عليها: " ارحل مراتي وحشتني.. متزوج من عشرين يوما " فقد أرجأ أياما من شهر العسل له، ومكث في ميدان التحرير حتى تنحّي مبارك، وقد تحول مطلبه إلى أمر خاص به، ليتداخل الهم الخاص مع هم الوطن في تضفيرة بديعة، فهو مشتاق لزوجته، ولكن شوقه لتحرر مصر من استبداد مبارك أكثر، ورحيل مبارك يعني شهر عسل جميل وجديد ومختلف له.

وهذا رابع: " لو ما استحمتش (تحممت) النهاردة في بيتنا، هستحمى يوم الجمعة في قصر الرياسة ". فقد أجّل مطلبه الشخصي وهو الاستحمام إلى ما بعد رحيل مبارك عن الرئاسة، ويقدّم تهديدا مبطنا إن لم ترحل سريعا وخلال يوم أو يومين، فإنه لن يتحمم في حمام بيته وإنما في حمام قصر الرئاسة، بعدما تقتحم الحشود الغاضبة قصر الاتحادية وتجبر مبارك على الرحيل من القصر العتيد.

وهناك شخص خامس يرفع لافتة مختلفة مدون عليها: " ده لو كان عفريت ؛ كان طلع "، وهي مفارقة، تحمل اللعب على موروث شعبي بسيط أساسه: أن الضغط والضرب على المتلبس بالجان / العفريت، يجبر العفريت على الخروج خلال ساعة أو ساعات، أما مبارك فله أيام من قيام الثورة، وهو رابض مكانه. فتأتي هنا تشبيهات طريفة، تكاد تكون متعادلة: العفريت = مبارك، الثورة = ضرب الشيخ على الجني، أيام الثورة = وقت الضرب نفسه.

ومن أطرف النكات المتداولة أن " أحد الشباب في مظاهرة يصرخ في مبارك والقائمين على السلطة معه: "حرام عليكم أخّرتونا ييجي ألف سنة. فرد عليه واحد ماشي جنبه وقال: أيوه صح، أنا رجعت البيت امبارح، لقيت إخواتي لابسين جلد معيز، وبيتنا من البوص ". فهي طرفة تلعب على التاريخ، وترى أن العقود الثلاثة التي قضاها مبارك في السلطة، مع استبداده وفساده، أدت إلى تأخّر التنمية والنهضة، في حين سبقت مصر والدول العربية دولٌ كثيرة، من أبرزها النمور الآسيوية والهند والصين وكوريا الجنوبية. وهذا كله عائد إلى مشكلة الحكم والإدارة، فما إن يوجد الحكم الصالح الرشيد، إلا ويمكن للدولة أن تنهض سريعا، خلال عقدين على الأكثر، فما بالنا أمام نظام مبارك، الذي هو امتداد لما يسمى نظام ثورة يوليو 1952م، والذي تشابهه نظم سلطوية ثورية في العالم العربي، وكلها شهدت ثورات وأحداثا دامية في توقيت متقارب. ولننظر على سبيل المثال إلى تجربة " سنغافورة " التي انتقلت خلال ربع قرن من العالم الثالث إلى العالم الأول (1965- 2000م) بفضل القيادة الحكيمة لرئيس وزرائها " لي كوان يو "، عبر استراتيجيات وخطط تميزت بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحسن إدارة الموارد والسلطة نظيفة اليد، مما جعلها نموذجا يحتذى في العالم[17].

2) نكات ما بعد التنحّي:

وهي النكات التي انتشرت بقوة في أعقاب تنحّي مبارك عن السلطة، وإعلان خريطة طريق جديدة، بعدما تولى المجلس العسكري تيسير شؤون البلاد، ورحيل الثوار عن الميادين، في الوقت الذي اندلعت فيه الثورات في بلدان عربية أخرى، مثل ليبيا واليمن وسورية، بجانب ثورة تونس التي كانت ملهمة في البداية، وثورة مصر التي دعمت المسار الثوري بوصفه سبيلا للتغيير، في ضوء فشل سبل التغيير الأخرى المتمثلة في الآليات الديمقراطية: الانتخابات بمختلف مستوياتها، والتحركات الحزبية والنقابية، وتجمعات منظمات المجتمع المدني، وهذا كله عائد إلى جمود الحكام وتكلسهم في مواقعهم، وتكوينهم لمنظومة واسعة من المتنفذين والمنتفعين، بجانب الرأسماليين الذين توحّدوا خلف السلطة، وكانوا واجهة لاستثمار أموالهم في الداخل، أو في مشروعات في الخارج، أو قنوات لتهريب الأموال.

تنحّى مبارك في مساء 11 فبراير 2011م، وفرحت جموع الشعب، وسرعان ما انتشرت النكات في طول البلاد وعرضها، عن المشهد التاريخي، الذي حظي هذا الجيل برؤيته عبر الشاشات، وهم يرون رئيسا عربيا لثاني مرة يترك السلطة تحت ثورة شعبية واسعة، وانحازت كل شرائح المجتمع لها، وتوارى – إلى حين – المنتفعون والسلطويون والخاسرون، ليدبّروا تحت الأرض مؤامرات جديدة، على نحو ما كانوا يفعلونه جهارا نهارا وهم في السلطة.

وجاءت النكات[18] بعد التنحّي هازئة ، ذات منحى إقليمي عربي، فهذا "القذافي يقرر إلغاء صلاة الجمعة في ليبيا "، وهذا بالطبع قبل ثورة 17 فبراير في ليبيا، متأثرا من خروج المصريين أيام الجمع في ثوراتهم، بعد أداء الصلاة.

وتلك نكتة تسربت: " السلام الجديد بين الزعماء العرب هو: الثورة عليكم ورحمة الله وبركاته "، وهذا يعني أن المنطقة مقبلة على سلسلة من الثورات مع أنظمة متشابهة في طريقة حكمها، فالقمع والاستبداد والفساد علامات ثلاث لها.

ومن النكت ذات المنحى الفانتازي أن " الرئيس مبارك قال: والله أنا خسارة في المصريين. وتنحّى، وقرر أن يرشح نفسه لرئاسة تونس، مما دفع ملايين التونسيين إلى المطالبة بعودة زين العابدين بن علي ". والبعد الفانتازي يتجلى في القناعة التي تتولد لدى الحاكم المستبد، حينما يتخيل نتيجة الإعلام المنافق وطول البقاء في السلطة؛ أنه منّة من الله على شعبه، وأن شعبه لم يقدر عبقريته، ويزداد البعد الفانتازي بأن مبارك يتطلع إلى المقعد الشاغر في الدول العربية فوجد مقعد تونس شاغرا بعد هروب " ابن علي "، وكان هذا سببا في تجدد الثورة مرة ثانية في

شوارع تونس، ليطالبوا بعودة من عرفوه وخبروه وهو " ابن علي "، لأنهم يرون مبارك أشد وبالا وفسادا من " زين العابدين "، كأنهم يستجيرون من النار بالرمضاء.

وعلى صعيد آخر، فإن " زين العابدين " لما عرف بتنحّي مبارك، أرسل له رسالة يقوله له فيها: متنساش تجيب دراع البلاي ستيشن معاك – رد مبارك عليه قائلا: لا تعايرنى ولا أعايرك الشعب خالعنى وخالعك ". والنكتة تنتهي بتناص مع مثل شعبي شائع: " لا تعايرني ولا أعايرك، الهم طايلني وطايلك "، وهو يقال في مواقف الهموم والأزمات عندما تعصف بالناس. النكتة موقف حواري بين رئيسين خلعهما شعبهما، وقد لاذ زين العابدين بمنفى مريح، لم يجد فيه إلا لعب البلاستيشن، فاتصل بمبارك هازئا، حتى يأتي ويشاركه بذراع آخر في اللعب.

ويصل الأمر إلى تخيل مبارك بعد وفاته، حيث " قابل السادات وعبد الناصر، فسألاه: هاه؟ سمّ ولا منصة؟ رد عليهم بحرقة وقال: فيسبوك! ". والنكتة تقفز لما بعد الموت، في حوار بين الرؤساء الثلاثة المتعاقبين بعد ثورة يوليو 1952م، حيث رحلوا عن السلطة بمؤامرت، فعبد الناصر – حسبما يشاع- مات مسموما عام 1970 م، أما السادات فالعالم شاهد على نهايته في حادثة المنصة الشهيرة في 6 أكتوبر 1981م، أما نهاية مبارك فكانت غريبة، بسبب الفيس بوك، عبر الصفحات التي أنشأها الثوار للترويج لثورتهم. وهنا تكون النهاية ليست بمعنى الموت، وإنما بمعنى ترك السلطة، فهؤلاء اعتادوا التأبيد في السلطة إلى لحظة وفاتهم، وينظرون إلى كيف ستكون جنازاتهم، ومشهد خروجهم النهائي من الدنيا.

وقد تطورت النكتة أكثر، باستخدام عناوين الأفلام والمسرحيات المصرية، ضمن نص شديد السخرية: " حسني مبارك "آسف على الازعاج" انت عملت أكبر "مطب صناعي" في تاريخ مصر، والله إنت "وش إجرام"، وطول عمرك "دبور" ودلوقتي معاك "زهايمر"، باختصار إنت " محترم إلا ربع"، كل الشعب بقى ينادي "جعلتني مجرمًا" وعملت الحلو "عسل إسود"، ومن السجون "العيال هربت"، سرقت من عيونا " الفرح" إنت فاكر مصر "كباريه" وعامل فيها "الزعيم" وكنا نقول يا عم عديها "حين ميسره... "، "ليه.. يا دنيا"، "هي فوضى" ، باختصار حسني مبارك. "طير إنت"..". هذا تناص على أفلام ليست سياسية الطرح في غالبيتها، ولكنها أوصلت الرسالة المبتغاة، واستثمرت شيوع عناوين الأفلام في الذاكرة الجمعية لتعيد إنتاج دلالتها لتشحن بطابع سياسي ساخر، من السهل وعيه لدى المتلقي.

لقد اقترنت فترة مبارك بكل أشكال الفساد، ولعل أغرب النكات التي لا يزال المصريون يرددونها إلى يومنا، مع إعادة تكييفها مع مصطلحات الحكم السائدة، تقول النكتة: " كان هناك شيخ اعتقل من قبل أمن الدولة، ثم أطلقوا سراحه مع مراقبته، أول يوم لقوه ماشي في شارع

الهرم راحوا مكلمين الريس، و قالوا له: الشيخ تاب يا ريس، ثاني يوم لقوه في كباريه قالوا الشيخ تاب و أناب يا ريس، ثالث يوم لقوه في الأتوبيس يسرق واحد قالوا له: الشيخ تاب و أناب و بقى عضو في الحزب الوطني يا ريس ". وربما تكون هذه النكتة منذ أيام عبد الناصر، وحقبة الاتحاد الاشتراكي، أو حقبة السادات عندما أسس حزب مصر، الشاهد هنا أن مفهوم التوبة عند السلطة مقلوب، ويعني أن من حاز السلطة لابد أن يكون سكيرا عربيدا في النوادي الليلية، ثم يصبح لصا يستبيح أموال الشعب.

إذن، بلا شك كانت الثورة المصرية نقطة نهاية لنظام، وأيضا نقطة بداية لحقبة جديدة في مسيرة الشعب المصري، ربما أصابتها نكسات، ولكن تظل الثورة بأحداثها ونكاتها في الذاكرة الجمعية للشعب، يستعيدها ويضحك ساخرا على ما أصابها، ولكنه على قناعة أن أيام الثورة لم تكن لحظات زيف أو تآمر أو اصطناع، وإنما كانت صراخا عالي الحدة، أفلح في إسقاط نظام توهّم هو ومن معه أنه يقف على أرض صلبة، يفعل ما يشاء، ويخطط لتوريث السلطة لابنه، موقنا أنه يحظى بدعم دولي وإقليمي ورضا تام عما يقوم به، مثلما تدعمه طبقات النخبة والأثرياء، ومعها الجيش المصري، وآلة شرطية قمعية، في دولة مخابراتية بامتياز، وكم كانت لحظة الثورة شديدة المرارة في حلوق هؤلاء، وهم يكتشفون أن الأرض الصلبة التي وقفوا عليها، كانت رمالا متحركة، وأن الشعب المصري لم يلفظهم فحسب، وإنما أدخلهم إلى مزبلة التاريخ، ليثبت أن الشعب يصنع التاريخ ويدونه بطريقته، بل ويعيد النظر فيما كُتِب.

خاتمة: يمكن أن نصل في ختام هذا البحث إلى جملة نتائج:

- إن الثورات العربية شكلت لحظات تاريخية في حياة الأمة، لابد من الوقوف عندها، ودراستها بتمعن، بغض النظر عما وصلت إليه الثورات العربية الآن، فلا تزال الأمة في مخاض وشوق إلى الحريات والنهضة والتقدم.
- لا يمكن الاكتفاء بالتوثيق التاريخي ولا الخطب والمقالات السياسية لمعرفة الثورة، وإنما تنهض الفنون الشعبية القولية وغيرها، لتكون خطابا معبرا عن نفسية الشعب واتجاهاته وفكره، فلا يمكن تجاهل هذه الفنون وإن توغلت في العامية، فالمستهدف هو الفهم لحقيقة الأمور، وأعماقها.
- قدمت الثورة المصرية نموذجا مبتكرا في سلميتها خلال أيامها الأولى، وكانت النكتة أحد أوجه التعبير بها، وهي تتسق بشكل عام مع طبيعة الشعب المصري العاشق للنكات، فلا عجب أن يطلق عليها الثورة الضاحكة

- تنوعت البنية الفنية للنكتة في الثورة المصرية ؛ ما بين الحوار، والمشهد الدرامي، والتعليق، والطابع الفانتازي والمفارقة والإيحاءات.
- العديد من النكات كانت إعادة إنتاج لنكات سابقة من عهد مبارك، وهناك نكات أخرى ظهرت طازجة خلال أحداث الثورة، وبعد تنحّي مبارك.
- لا يمكن حصر فن النكتة خلال النكتة فقط، فهناك تعليقات ساخرة ظهرت في اللافتات المرفوعة في الميادين، وفي وسائل التواصل الاجتماعي، وأيضا في الأغاني، وفن الكاريكاتير، والجداريات وغيرها.
- من المهم بحث كيفية جمع التراث الشفاهي الفكاهي المواكب للثورات الشعبية، في مختلف أشكاله وتوثيقه، جنبا إلى جنب مع التوثيق التاريخي للأحداث، فلا يمكن فهم مجريات الثورة ومآلاتها إلا بالوقوف على الفنون الشعبية القولية، لنعرف كيف رأى الشعب وكيف عبّر.
- إن دراسة فن النكتة ضمن منهجية تحليل الخطاب يعني دراسة أوجه البلاغة الجماهير، التي تبدع بشكل عفوي، وسرعان ما تنتشر بين الناس، التي تتلقاها وتعجب بها، وتعيد إنتاجها. فيمكن القول إن فن النكتة فن جماهيري شعبي جماعي بامتياز له خصائصه الجمالية والفكرية والنفسية.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب والمجلات والدوريات:

-أسرار محاكمة القرن (مبارك ونجليه)، أحمد شلبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2012م.

- بلاغة المخاطب: البلاغة الغربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، عماد عبد اللطيف، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر " Power and The role of the Intellectual " قسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، نوفمبر 2005، منشورات: 2006 م.

-تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائيات الأيقونات الاجتماعية، د.عماد عبد اللطيف، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العددان (83، 84)، خريف – شتاء، 2013/12م.

- تحليل الخطاب، ج.ب. براون، ج. يول، ترجمة: محمد لطفي الزليطني، منير التريكي، نشر: جامعة الملك سعود، كلية اللغات والترجمة، الرياض، 1994م.
-علم الفلكلور، الكزاندر هجرتي كراب، ترجمة رشدي صالح، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967 م.
- الفكاهة والضحك : رؤية جديدة، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2003م.
-المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الرابعة،1425هـ، 2004م.
-من العالم الثالث إلى العالم الأول، قصة سنغافورة (1965-2000م)، لي كوان يو، ترجمة: معين الإمام، مكتبة العبيكان للنشر، الرياض، ط2، 2007م، ص136 وما بعدها.
- النكتة الشعبية الاجتماعية بمنطقة وهران (2007- 2009): دراسة في مضامينها وأبعادها، محمود بوكفوسة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2011/2010م.

ثانيا: المواقع الإلكترونية: تاريخ الدخول 7/ 6/ 2021م.

- الفيلم الوثائقي الذي بثته محطة BBC العربية عن الثورة المصرية بعنوان " الثورة الضاحكة "، 2011/3/23م.
- في النكتة السياسية، إدريس ولد القابلة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، http://www.nashiri.net/critiques-and-reviews/critiques-and-analyses/3853---v15-3853.html .
-موقع " نجوم مصرية " https://www.nmisr.com/، " نكات عن حقبة حسني مبارك ". - موقع المصري لايت http://lite.almasryalyoum.com/lists/39044/ " أشهر نكات ثورة يناير ".
-موقع طلاب جامعة جنوب الوادي. http://svuqena2.ibda3.org/t180-topic
موقع جريدة البداية http://albedaiah.com/news/2016/01/31/105966
موقع جريدة اليوم السابع http://www.youm7.com/story/2015/1/29

الهوامش والإحالات

[1] - تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائيات الأيقونات الاجتماعية، د.عماد عبد اللطيف، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، العددان (83، 84)، خريف – شتاء، 2013/12م، ص510

[2] - السابق، ص510

[3] - تحليل الخطاب، ج.ب. براون، ج. يول، ترجمة: محمد لطفي الزليطني، منير التريكي، نشر: جامعة الملك سعود، كلية اللغات والترجمة، الرياض، 1994م، ص6، 7.

[4] - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الرابعة،1425هـ، 2004م، ص950

[5] - في النكتة السياسية، إدريس ولد القابلة، دار ناشري للنشر الإلكتروني، http://www.nashiri.net/critiques-and-reviews/critiques-and-analyses/3853---v15-3853.html، وأيضا موقع ديوان العرب.

[6] - الفكاهة والضحك : رؤية جديدة، د. شاكر عبد الحميد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2003م، ص122-133

[7] - بلاغة المخاطب: البلاغة الغربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، عماد عبد اللطيف، بحث منشور ضمن أعمال مؤتمر " Power and The role of the Intellectual " قسم اللغة الإنجليزية، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، نوفمبر 2005، منشورات: 2006 م. ص8.

[8] - راجع: الفيلم الوثائقي الذي بثته محطة BBC العربية عن الثورة المصرية بعنوان " الثورة الضاحكة "، 2011/3/23م. على اليوتيوب https://www.youtube.com/watch?v=2WinLN2FYS8 تاريخ الدخول 7/ 6/ 2021

[9] - النكتة الشعبية الاجتماعية بمنطقة وهران (2007- 2009): دراسة في مضامينها وأبعادها، محمود بوكفوسة، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم الثقافة الشعبية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، 2011/2010م، ص5.

[10] - اعتمدنا هنا على عدد مواقع عديدة للنكتة المصرية، قبل ثورة يناير، وهي موثقة في مواقع إلكترونية متعددة، ومن أبرزها: موقع " نجوم مصرية https://www.nmisr.com/"، " نكات عن حقبة حسني مبارك ". وأيضا موقع المصري لايت http://lite.almasryalyoum.com/lists/39044/ " أشهر نكات ثورة يناير". تاريخ الدخول 7/ 6/ 2021

[11] - انظر تفصيلا: أسرار محاكمة القرن (مبارك ونجليه)، أحمد شلبي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2012م، الصفحات: 96 – 102.

[12] - علم الفلكلور، الكزاندر هجرتي كراب، ترجمة رشدي صالح، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967 ص94.

[13] - السابق، ص105.

[14] - انظر في ذلك: موقع طلاب جامعة جنوب الوادي. http://svuqena2.ibda3.org/t180-topic تاريخ الدخول 7 / 6 / 2021

[15] - تم القبض على حبيب العادلي في أعقاب ثورة يناير 2011م، ووجهت له اتهامات بالتربح من وظيفته، حيث بلغت ثروته حوالي ثمانية مليارات جنيه، بجانب اتهامه بتعذيب وقتل المتظاهرين، وتورطه في تفجير كنيسة القديسين في الإسكندرية قبل ثورة يناير من أجل إحداث فتنة طائفية، ونفس الأمر في تفجيرات شرم الشيخ

وغيرها. انظر على سبيل المثال: موقع جريدة البداية http://albedaiah.com/news/2016/01/31/105966 وفيه: اتهام العادلي بنهب مليار و134 مليون جنيه.. العادلي حصل منها على 530 مليونا.. و688 مليونا تائهة.

[16] - انظر: الفيلم الوثائقي الذي بثته محطة BBC العربية عن الثورة المصرية بعنوان " الثورة الضاحكة "، 2011/3/23م. على موقع يوتيوب تاريخ الدخول 7 / 6/ 2021م.
https://www.youtube.com/watch?v=2WinLN2FYS8

[17] - من العالم الثالث إلى العالم الأول، قصة سنغافورة (1965-2000م)، لي كوان يو، ترجمة: معين الإمام، مكتبة العبيكان للنشر، الرياض، ط2، 2007م، ص136 وما بعدها.

[18] - من المواقع والمنتديات التي نشرت هذه النكات: موقع جريدة اليوم السابع http://www.youm7.com/story/2015/1/29 تاريخ الدخول 7/ 6/ 2021